الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

المساهمة الفكرية للأستاذ "كمال بداري"
وزير التعليم العالي والبحث العلمي بموضوع حول:

"جامعة مبدعة في خدمة جزائر صاعدة"

بمناسبة الافتتاح الرسمي للسنة الجامعية 2023_2024

جامعة قالمة "8 ماي 1945" بتاريخ: 23 سبتمبر 2023

"جامعة مبدعة في خدمة جزائر صاعدة"

بمناسبة افتتاح السنة الجامعية 2023-2024، يسعدني أن أشارككم تصوراً يهدف إلى تعزيز هوية جامعتنا، حيث لا يخفى على أحد أننا مجتمع مكوّن من طلبة وموظفين محفّزين بالتزامنا المزدوج بالتفوّق وإثبات كفاءة جامعتنا، هذا بالإضافة إلى أننا مصممين على تعزيز مكانتها الاستراتيجية ليس فقط على المستوى الإقليمي، بل أيضًا على الساحة الدولية.

لبلوغ ما نطمح إليه، انطلقنا من فرضية أساسية مفادها أنه إذا كنا نرغب في أن تؤتي الجهود المبذولة ثمارًا عالية الجودة في مجال التعليم والتكوين والبحث، فمن الضروري أن نتبنى بوضوح نموذجًا جديدًا، وهذا بالضبط ما فعلناه، ونحن مستمرون في هذا المسعى من خلال وضع معايير وإجراءات أكثر ملاءمة في مجال التعليم والحوكمة والحياة الطلابية والبحث العلمي.

لكن علينا، قبل كل شيء، أن نتطرق إلى: "ماهية الجامعة؟" أو بعبارة أخرى، "ما هو جوهرها"؟ وللإجابة على هذا السؤال، يتعين في المقام الأول توضيح أن مصطلح "الجامعة" يعود إلى أكاديمية أفلاطون التي جاءت تجسيدًا لفكرة أن الجامعة هي "مجتمع من المعلمين والعلماء" اجتمعوا للتعلّم والدراسة. وفي وقت لاحق، وبالضبط في القرن الثالث عشر، أصبحت الجامعة مكانًا مقدسًا للدراسة والتعلم، والنقاش والتدريس، والاكتشاف والتأمل، حيث يجب أن يكون العالِم متجذرًا في أخلاقيات عميقة، وأن يؤسّس لنفسه قانونًا من خلال البحث المستمر والحازم عن المعرفة.

لقد تمّ، بعد ذلك، تصميم نموذج الجامعة الحديثة من قبل "همبولدت"، مؤسس جامعة برلين عام 1810. حيث شملت الجامعة الهمبولدتية أساسا الجانب الثقافي عبر تكوين فرد متعلم ومنفتح كمواطن في دولة قومية، مما جعل الجامعة، آنذاك، بمثابة المؤسسة الثقافية المركزية لأي مجتمع. واستلهاما من هذا النموذج تمّ إنشاء الجامعات على مستوى العالم.

إن ما ينتظر من الجامعة، اليوم، إنّما يكمن في رفع تحديات عدة، فهي مطالبة بضمان تكوين عالي الجودة لرأس المال البشري في سياق التزايد الكبير لتعدادات الطلبة، وإتاحة الفرص لجميع الشرائح الاجتماعية، بما فيها تلك الأكثر هشاشة، من أجل الالتحاق بالجامعة، وتوفير فرص الإدماج المهني لخريجيها كحل لبطالة الشباب وتحقيق تطلعات الأسر، كما أنها مطالبة بأن تكون مركزا للخبرة النظرية والعملية، ورائدة في مجال المعرفة الإنسانية، ومدافعة عن حقوق الملكية الفكرية، ومُنتجة للقوة الناعمة.

على المستوى العالمي، تشهد الجامعة تغيرات غير مسبوقة على الصعيدين الهيكلي والمفاهيمي. وقد تمّ، نظريًا، تحديد العوامل التي أدت لهذه الوضعية أكثر من مرة. وتتمثل هذه العوامل، في المقام الأول، في

العولمة والشمولية. إن تأثيرات هذه الميول والاتجاهات باتت معروفة تمامًا، وقد تولّد عنها عددًا متزايدًا من التحديات يتعين مواجهتها بسرعة ومرونة.

لقد سعينا على تجسيد ذلك، من حيث أننا مكّنا الجامعة الجزائرية، في خضم كل هذه التحديات، من تحقيق التقدّم، مع المحافظة على مهامها الأساسية كمصدر للمعرفة، ومحفّز للتنمية الاقتصادية، وازدهار المجتمع. إن هدفنا الآن يكمن في تعزيز هذه المكتسبات من خلال إعطاء اهتمام متزايد للإبداع. وهنا سنتوقف قليلا لتحديد هذا المفهوم الأساسي من منظور التعليم المعاصر. فالإبداع هو "نشاط خيالي يتشكل بطريقة تؤدي إلى نتائج أصيلة وذات قيمة"، ويستدعي "ضرورة منع الهياكل الرسمية من التسبب في فقدان القدرة على التخيل سواء لدى الطلبة أو لدى الأساتذة". وينتج هذا النشاط عن مرحلتين متميزتين هما: الإبداع، وتجسيد المنتوج المتمخض عنه. لذا يعتبر الإبداع نقطة الانطلاق للابتكار؛ فحيث لا يكون هناك إبداع، لن يكون هناك ابتكار.

في نفس السياق، يجب على الجامعة، أن تكون، قبل كل شيء، مبدعة، وأن تهيئ الظروف المؤدية إلى تنمية وتطوير الإبداع في حدود رسالتها الأساسية ومجالات أنشطتها. غير أنه لا يمكن فرض الإبداع أو الأمر به، كما لا يمكن أيضًا تزييفه أو تمثيله، بل يمكن تحفيزه وتغذيته. وهذا هو المعنى الذي نتطلع لإدماجه في الجامعة التي نصبو لتشييدها، أي جعلها "مؤسسة مبدعة تسهم في إثراء المجتمع وتحريره، باستخدام مقاربة مصممة خصيصا لتطوير التفكير والسلوك الإبداعي للطالب، باستعمال أدوات ووسائل تدريس مناسبة، مقاربة ابداعية من شأنها جعل التعليم أكثر جاذبية".

إن الأنشطة اليومية في الجامعة تشمل بشكل رئيسي التكوين، والبحث العلمي، والتسيير. غير أنه، وبسبب التأثير المتنامي للعولمة والشمولية، باتت هذه الأنشطة تتشكل، بشكل متزايد، عن طريق ممارسات مستوحاة من مجالات أخرى من النشاط البشري، على غرار إدارة الأعمال حيث يعتبر الطالب في بعض أنظمة التعليم كزبون. وتكمن النية هنا في اعتماد هذه الممارسات الجديدة، بما لا يؤثر سلبا، بأي حال من الأحوال، على جوهر الجامعة، لا سيما فيما يتعلق بـــ:

- التكوين، من حيث أنه يجب ألا يتجاوز السيرورة الأكاديمية الديناميكية الثلاثية بين الأستاذ والمعرفة والطالب، حيث يظل هذا الأخير في وضعية التعلم. وينبغي أن يمتلك الأستاذ الكفاءة لتحديد ما يجب أن يتمّ استيعابه، مع تشجيع الطالب في الوقت ذاته على اكتساب الاستقلالية لإكمال مساره التعليمي، وفقًا لمشروعه الشخصي.
- الطالب، من حيث أنه يجب ألا يؤثر تحرّره وتعزيز استقلاليته على قدرته على التعاون ضمن المجموعة، وكما لا يجب أن تؤثر المنافسة بين الجامعات على قدرتها على التعاون المتبادل.

- البحث العلمي، من حيث أنه من الضروري الإقرار بأن للنشاط العلمي طابعًا ثقافيًا إبداعيًا، سواء كان علميًا أو بيداغوجيًا، يهدف إلى تطوير الاقتصاد وإثراء المجتمع، وما النشر العلمي إلا نتيجة ووسيلة لتحقيق هذا الهدف.
- التسيير الجامعي، من حيث أنه من الضروري تعزيز المبدأ الأساسي والبديهي المتمثل في ضمان توفير الظروف الملائمة لتجسيد العمل الأكاديمي بكل دقة واحترافية، ذلك أن هذه الممارسات الأكاديمية من شأنها تأكيد مكانة الجامعة وتعزيز دورها في أداء مهامها.

إنّ الابتكار بوصفه الرغبة في توجيه الجهد البشري نحو اتجاهات مستحدثة من أجل تصميم منتجات جديدة، أو تحسين المنتجات الحالية، يقع في صميم مهام المؤسسة الجامعية التي تكوّن الطلبة وتدرّبهم على التكيف والتطور، في عالم متغير باستمرار. إن العديد من الوظائف التي سيمارسها خريجو الجامعة بحلول عام 2030 لم تظهر للعيان بعد، ومع ذلك، تسعى الجامعة، التي نتطلع إلى بنائها اليوم، للتركيز على الإبداع والابتكار، وذلك من خلال وضع آليات وميكانيزمات، بعضها في مرحلة التجسيد والبعض الآخر على وشك ذلك، والتي من شأنها تسهيل تكيّف الطالب مع المواقف الجديدة. ونذكر من بين هذه الآليات، على سبيل المثال لا الحصر: ريادة الأعمال، والحاضنات، وطالب النجوم الخمسة، والجامعة المفتوحة، والتعليم عن بعد، والتكوين المستمر....

على صعيد آخر، فإن إكساب مجموعة من المعارف لجموع المتعلمين دون تهميش أو إقصاء، يعدّ من أوكد واجباتنا، ومن ثمة فإنه يتعين علينا القيام بتقييم نقاط قوتنا باستمرار من أجل تركيز جهودنا على مجالات خبرتنا، وتعزيز قدراتنا فيما يتعلق بإثراء اقتصاد المعرفة والابتكار.

من أجل ذلك، يجب علينا أن نعمل، باستمرار، على توطيد هويتنا والارتقاء بسمعة جامعتنا، من خلال:

- المساهمة المميّزة والنوعيّة كتقنيّين، ومهندسين، وعلماء اجتماع، وأدباء ومفكرين، وفنانين، ورياضيين، وأساتذة، وباحثين...، في خدمة المجتمع الجزائري،
- تعزيز تطوير شراكات قوية مع المؤسسات المماثلة، حيث يجري العمل، حاليًا، على تعزيز الشراكات مع عدة مؤسسات أكاديمية وعلمية أخرى في روسيا، وتركيا، والصين... دون إغفال شركائنا التقليديين، على الصعيدين الإقليمي والدولي.

إننا نسعى كذلك للإسهام في الارتقاء باقتصاد الابتكار، حيث باشرنا هذا المسار بشروعنا في بعث "أقطاب الامتياز" في الخريطة الوطنية للتكوين والبحث. وفي هذا السياق، يندرج إنشاء القطب العلمي التكنولوجي لسيدي عبد الله بالجزائر العاصمة، والذي يضم حاليا أربعة مدارس متخصصة في مجالات علمية واعدة، علما أن هذا القطب لا يزال قيد التطوير، حيث ينتظر أن يضم مؤسسات جامعية وبحثية أخرى، يمكن

أن تشكّل مجتمعة هيكلا أكاديميا موحدا تحت تسمية "جامعة الجزائر للعلوم والتكنولوجيا". وسيكون لهذا القطب نشاطات موجهة أساسًا نحو البحث من خلال وضع مكوناته المختلفة ضمن دائرة البحث التطويري، مما سيمكّنه من الحصول على مراتب مشرفة ضمن أبرز وأفضل التصنيفات الدولية.

في هذا الصدد، اسمحوا لي أن أعرب عن امتناني لمسيري المدارس المنتمية لهذا القطب المستقبلي الواعد على الوتيرة السريعة التي اعتمدوها في إدخال هذا الصرح العلمي الجديد والمتميز حيز الخدمة. كما أشير، في السياق ذاته، إلى أن الندوتين الجهويتين لجامعات شرق وغرب البلاد، واللتان تضمان مؤسسات التعليم العالي في جنوبنا الكبير، هما بصدد اقتراح مكانين مناسبين من أجل توطين قطبين علميين وتكنولوجيين جديدين، على غرار قطب الجزائر العاصمة.

إن الجلسات الوطنية للتعليم العالي، والتي يتوقع أن تُعقد في غضون شهر ديسمبر، ستسمح بتحضير السنة الجامعية 2024-2025 من منضور إصلاحي متجدد، لا سيما ما يتعلّق بإعادة النظر في ميادين التكوين والشعب المتفرعة عنها، باعتبارها عملية ضرورية لتحسين مرئية المؤسسات الجامعية الوطنية، وبتعزيز دورها في المساهمة في النهوض الاقتصادي، والتقليص من هدر الوسائل، وتجميع الموارد وتقاسمها، فضلا عن التقليل من ظاهرتي التسرب والرسوب، وخلق ديناميكية واعدة في الحرم الجامعي.

كما يسعى القطاع هذه السنة لتعزيز استخدام البرمجيات مفتوحة المصدر (Open Source) باعتبارها برمجيات ذات موثوقية عالية تسمح لمستخدميها بإجراء تعديلات وتحسينات عليها، كما أنها تتميز بأنها بيئة مفتوحة للتعلم ومشاركة المعرفة وتقاسمها، وتعزيز الابتكار.

وفي المرحلة الحالية، إننا نعمل على رفع قدراتنا عبر تطوير نماذج من المنتجات الإبتكارية على غرار:

- السيارة الكهربائية والطائرات بدون طيار،
- أجهزة الرادار للوقاية من حرائق الغابات،
- بطاريات للطاقات المتجددة،
- زراعة القمح الصلب،
- تحلية مياه البحر، ...

كما أننا بصدد توسيع عروض التكوين على مستوى القطب الجامعي لسيدي عبد الله، ومدارسه العليا في مجالات متقدمة، مثل: الروبوتات المتحركة، والذكاء الاصطناعي، وتكنولوجيا النانو... ونسعى أيضًا للاستفادة من خبرتنا المتراكمة في المجالات ذات الصلة في تصميم عروض تكوين تركّز على إدارة الموارد الطبيعية (تحلية مياه البحر، والزراعة، والفلاحة الرعوية)، ومقاومة وصمود آبار المياه في جنوب البلاد،...

وفي هذا الصدد، أود أن أغتنم هذه السانحة لأدعو السيد مدير جامعة "8 ماي 1945" بقالمة، لوضع تصور متكامل يتعلق بتقديم عروض تكوين متطورة تتّصل بمهن المستقبل، وتسهم في تطوير الاقتصاد على المستوى المحلي والجهوي والوطني.

إن الجامعة الجزائرية مطالبة اليوم أكثر من أي وقت مضى أن تعمل على تعزيز قدرتها على كسب الرهانات ومواجهة التحديات، لا سيما في ضوء الزيادة المتنامية للطلب الاجتماعي على التعليم العالي، كما أنها مطالبة كذلك في إطار تعزيز حركية الأساتذة والطلبة بزيادة المبادرات المتعلقة بذلك مع نظيراتها الأجنبية، من خلال تنسيق الجهود الثنائية والمتعددة الأطراف، عبر اعتماد آليات متجددة في تنظيم التربصات والتداريب والتكوين الإقامي والإشراف المشترك على الأطروحات والعطل العلمية،... وتشجيع انضمام مؤسسات التعليم العالي إلى شبكات جامعية عالمية نشطة وفاعلة، والاعتراف المتبادل بالمؤهلات الأكاديمية مع الجامعات الأجنبية، فضلا عن إقامة علاقات جديدة مع مراكز ومخابر بحث، مع تعزيز تلك الموجودة سابقا، وتشجيع النشر العلمي المشترك، دون إغفال تعزيز جودة التعليم العالي.

إن هذه العوامل متجذرة منذ وقت طويل في هوية الجامعة الجزائرية، وهي بمثابة التزام منها. ويبقى علينا تعزيز هذه المقاربات مع شركائنا التقليديين في الدول الصناعية المتطورة، وكذا شركائنا في الدول الصاعدة.

لا أود أن أختتم محاضرتي الافتتاحية هذه، دون أن أجدد دعوتي للكفاءات الجزائرية العاملة بالخارج ليكونوا قريبين -قدر الإمكان- من زملائهم في الوطن، من أجل التبادل والتعاون في سبيل التجسيد المشترك لغاياتنا النبيلة.

ولا يمكننا اليوم، أن نتوجّس من المجهول والمخاطرة، كما لا يمكننا أن نتجاهل الصعاب أو العقبات الممكنة التي قد تعرقل تجسيد طموحاتنا ومشاريعنا الرامية إلى جعل الجامعة الجزائرية جامعة إبداعية تخدم الجزائر الصاعدة، وسيتمّ دعوة أساتذتنا وباحثينا وطلبتنا، في الوقت المناسب، للمشاركة والانخراط أكثر في هذا المشروع. وإنني على يقين بأن اتحادنا جميعا سيمكننا من اختيار أفضل مسار للتجديد، المسار القادر على تلبية تطلعات بلادنا في مجال العلوم والتكنولوجيا.

ختاما، لا يسعني إلا أن أتمنى لجميع فواعل الأسرة الجامعية عودة ميمونة، ودخولا جامعيا موفقا.

ومن جامعة "8 ماي 1945" بقالمة، أعلن عن الانطلاق الرسمي للسنة الجامعية 2024/2023.

أشكركم على كرم الإصغاء، والسلام عليكم